تفسير البيضاوي

30 - { وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة } تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم فإن خلق آدم وإكرامه وتفضيله على ملائكته بأن أمرهم بالسجود له إنعام يعم ذريته وإذا : ظرف وضع لزمان نسبة ماضية وقع فيه أخرى كما وضع إذ الزمان نسبة مستقبلة يقع فيه أخرى ولذلك يجب إضافتهما إلى الجمل كحيث في المكان وبنيتا تشبيها لهما بالموصولات واستعملنا للتعليل والمجازاة ومحلهما النصب أبدا بالظرفية فإنهما من الظروف الغير المتصرفة لما ذكرناه وأما قوله تعالى : { واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف } ونحوه فعلى تأويل : اذكر الحادث إذا كان كذا فحذف الحادث وأقيم الظرف مقامه وعامله في الآية قالوا أو أذكر على التأويل المذكور لأنه جاء معمولا له صريحا في القرآن كثيرا أو مضمر دل عليه مضمون الآية المتقدمة مثل وبدأ خلقكم إذ قال وعلى هذا فالجملة معطوفة على خلق لكم داخلة في حكم الصلة وعن معمر أنه مزيد والملائكة جمع ملأك على الأصل كالشمائل جمع شمأل والتاء لتأنيث الجمع وهو مقلوب مألك من الألوكة وهي : الرسالة لأنهم وسائط بين ا تعالى وبين الناس فهم رسل ا أو كالرسل إليهم واختلف العقلاء في حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسهم فذهب أكثر المسلمين إلى أنها لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك وقالت طائفة من النصارى : هي النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للأبدان وزعم الحكماء أنهم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة منقسمة إلى قسمين : قسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحق جل جلاله والتنزه عن الاشتغال بغيره كما وصفهم في محكم تنزيله فقال تعالى : { يسبحون الليل والنهار لا يفترون } وهم العليون والملائكة المقربون وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض على ما سبق به القضاء وجرى به القلم الإلهي { لا يعصون ا ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون } وهم المدبرات أمرا فمنهم سماوية ومنهم أرضية على تفصيل أثبته في كتاب الطوالع .

والمقول لهم : الملائكة كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصص وقيل ملائكة الأرض وقيل إبليس ومن كان معه في محاربة الجن فإنه تعالى أسكنهم في الأرض أولا فأفسدوا فيها فبعث إليهم إبليس في جند الملائكة فدمرهم وفرقهم في الجزائر والجبال وجاعل : من جعل الذي له مفعولان وهما في { الأرض خليفة } أعمل فيهما لأنه بمعنى المستقبل ومعتمد على مسند إليه ويجوز أن يكون بمعنى خالق والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه والهاء فيه للمبالغة والمراد به آدم E لأنه كان خليفة ا في أرضة وكذلك كل نبي استخلفهم ا في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم لا لحاجة به تعالى إلى من ينوبه بل لقصور المستخلف عليه عن

قبول فيضه وتلقي أمره بغير وسط وذلك لم يستنبئ ملكا كما قال ا تعالى : { ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا } ألا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتهم واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار أرسل إليهم الملائكة ومن كان منهم أعلى رتبة كلمة بلا واسطة كما كلم موسى عليه السلام في الميقات ومحمدا A ليلة المعراج ونظير ذلك في الطبيعة أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد جعل الباري تعالى بحكمته بينهما الغضروف المناسب لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك أو خليفة من سكن الأرض قبله أو هو وذريته لأنهم يخلفون من قبلهم أو يخلف بعضهم بعضا وإفراد اللفظ : إما للاستغناء بذكره عن ذكر بنيه كما استغني بذكر أبي القبيلة في قولهم : مضر وهاشم أو على تأويل من يخلفكم أو خلفا يخلفكم وفائدة قوله تعالى هذا للملائكة تعليم المشاورة وتعظيم شأن المجعول بأن بشر من فيه ما على الراجح فضله وإظهار خلقه قبل بالخليفة ولقبه ملكوته سكان بوجود D المفاسد بسؤالهم وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك .

{ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء } تعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها أو يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية واستكشاف عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاسد وألغتها واستخبار عما يرشدهم ويزيح شبهتهم كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره وليس باعتراض على ا تعالى جلت قدرته ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى : { بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون } وإنما عرفوا ذلك بإخبار من ا تعالى أو تلق من اللوح أو استنباط عما ركز في عقولهم أن العصمة من خواصهم أو قياس لأحد الثقلين على الآخر السفك والسبك والسفح والشن أنواع من الصب فالسفك يقال في الدم والدمع والسبك في الجواهر المذابة والسفح في الصب من أعلى والشن في الصب من فم القربة ونحوها وكذلك السن وقرئ { يسفك } على البناء للمفعول فيكون الراجع إلى { من } سواء جعل موصولا أو موصوفا محذوفا أي : يسفك الدماء فيهم .

{ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك } حال مقررة لجهة الإشكال كقولك : أتحسن إلى أعدائك وأنا الصديق المحتاج القديم والمعنى : أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك والمقصود منه الاستفسار ومع ما هو متوقع منهم على الملائكة المعصومين في الاستخلاف لا العجب والتفاخر وكأنهم علموا أن المجعول خليفة ذو ثلاث قوى عليها مدار أمره : شهوية وغضبية تؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء و عقلية تدعوه إلى المعرفة والطاعة ونظروا إليها مفردة وقالوا : ما الحكمة في استخلافه وهو باعتبار تينك القوتين لا تقتضي إيجاده فضلا عن استخلافه وأما باعتبار القوة العقلية فنحن نقيم ما يتوقع منها سليما عن معارضة تلك المفاسد وغفلوا عن

فضيلة كل واحدة من القوتين إذا صارت مهذبة مطواعة للعقل متمرنة على الخير كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف ولم يعلموا أن التراكيب يفيد ما يقصر عنه الآحاد كالإحاطة بالجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل الذي هو المقصود من الاستخلاف وإليه أشار تعالى إجمالا بقوله : .

{ قال إني أعلم ما لا تعلمون } والتسبيح تبعيد ا تعالى عن السوء وكذلك التقديس من سبح في الأرض والماء وقدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ويقال قدس إذا طهر لأن مطهر الشئ مبعد له عن الأقذار و { بحمدك } في موضع الحال أي : متلبسين بحمدك على ما ألهمتنا معرفتك ووفقتنا لتسبيحك تداركوا به ما أوهم إسناد التسبيح إلى أنفسهم ونقدس لك نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك عند قوم بالتسبيح وسفك الدماء الذي هو أعظم الأفعال الذميمة بتطهير النفوس عن الآثام وقيل : نقدسك واللام مزيدة